السلفية...الحقيقة والواقع

أ.د/ محمد عبد الفضيل القوصي (*)

بين مصطلح (السلف) ومصطلح (السلفية) التباس وإيهام!!

فحين يطرق سمع المسلم مصطلح (السلف) يتبادر إلى وعيه مشهد أولئك الصحابة الأجلاء والتابعين وتابعيهم ممن عاش القرون الثلاثة الأولى فيحس إحساسًا عميقًا بشعور جارف من المحبة والمهابة، والإجلال والاحترام.

أليس أولئك السلف هم الذين حملوا على عواتقهم لواء الدعوة في عهدها الباكر، ثم احتضنوها غضة طرية، صافية نقية؟

في ضوء هذا المعنى يصبح الانتساب إلى السلف شرفًا وحقًا لجميع المسلمين، دون أن يدعي فريق أنه هو وحده الجدير بالانتساب إليهم منفردًا دون سواه.

أما حين يذكر مصطلح (السلفية) فإن المتأمل اليقظ يدرك أنه بإزاء مصطلح قد استحدث لكي يقتصر على طائفة معينة، ادعت لنفسها حق الانفراد بوراثة السلف، وأقصت كل من يخالفها رأيها من إطار هذه الوراثة، أيا كان نصيب رأيها هذا من القوة أو الضعف أو الصحة أو البطلان!

فماذا إذن عن السلف أنفسهم؟

هل كانت لهم (جوامع فكرية) يمكن تتبعها رغم تنوع آرائهم حيال المواقف المختلفة، والأحداث المستجدة التي اكتظت بها حياة المسلمين الواسعة؟

يمكن القول في هذا الصدد بعدة أطراف جامعة لمنهج السلف:

(١) إنهم كانوا لا يجدون في اختلاف الآراء بأسا بل كان بعضهم يتعقب آراء بعض، ويصحح آراء بعض، فتتعدد آراؤهم في المسألة الواحدة دون أن تؤدي تلك التعددية السمحة إلى التنابذ والتنافر.

(٢) إن مبعث هذا الاختلاف هو التوسعة على الناس، ولقد كان عمر بن عبد العزيز يقول: «ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنه لو كان قولًا واحدًا لكان الناس في ضيق» كما وصفهم آخر بقوله: «ما رأيت قومًا أيسر سيرة، ولا أقل تشديدًا منهم».

(٣) إن السلف مع شدة تمسكهم بالكتاب والسنة: لم يكونوا يرون في العقل خصيمًا مبينا، بل كانوا يرون فيه سندا للشرع، ولم يكونوا ينفرون من الرأي بل يعدونه معوانا على فهم النص.

وفي هذا المناخ كان لا بد أن تنشأ مدرسة الرأي على يدي الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ / ٦٩٩-٧٦٧م) ولم يكن الرأي في تلك المدرسة الرفيعة مجرد نظرات متناثرة، بل كان منهجًا متسقًا قائما على أسس رصينة من القطعيات المعلومة من الدين بالضرورة.

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

ثم أقول بعدئذ:

(١) لـو أن منهج السـلف بأطرافـه تلك قد ظل ماثلًا في وعـي الأمة دون أن يعكر صفوه تيار وافـد، ويحمل بصمات فكريـة مغايرة مدعيًا أنه وحده وارث السلف: لما طغت على حياتنا أمواج مـن المظاهـر والأشـكال الجوفـاء، دون اعتبار للجوهـر والمضمـون، وللمعانـي الكامنـة وراء تلك المظاهر ولما سيطرت على فهمنا للنصوص الشـرعية أغلال ثقال من الظاهريـة الجافة، دون إعمال لمقاصد الشرع ومراميه، ولأساليب اللغة وطرائقها في التعبير.

(٢) لو أن منهج السلف بأطرافه تلك قد ظل حاضرًا في وعي الأمة لما أصبح الشـغل الشـاغل لنـا هـو اللهـاث وراء الأقـوال الضعيفـة والآراء الشـاردة، والمذاهب المرجوحـة، ولما تحولت المندوبات إلـى مفروضـات، والمكروهات إلى محرمات ولما شـاع فكر التكفيـر والتبديع على غير وجهه الشرعي المنضبط الرصين.

(٣) لـو أن منهج السـلف بأطرافـه تلك قد ظـل يقظًـا في وعي الأمـة لما انبعثـت الخلافات الاعتقادية من رقدتها في بطون المتون وتضاعيف الحواشي، ولما أصبحت مثارا للجدال العقيم في سـاحات المسـاجد، وعلى قنـوات الفضاء، ولا انشـغلنا عنهـا بمواجهة الفسـاد والظلم وضياع الحقوق، وبمجابهة الطغيان والاسـتبداد وسـائر الآفـات التـي تقـف عائقًـا في وجـه بلـوغ الأمة (مرتبة الخيرية) التي أناطها القرآن الكريم بها، فما كان السـلف يسكتون على ظلم، ولا يجبنون على ضيم، ولا يتخاذلـون حين يدعو الداعي إلى دفع مفسدة أو رفع مظلمة!

بيـد أن غبـش الرؤيـة واختـلال المفاهيم قد أصاب، فيما أصاب، مفهوم السلف!

(١) فلقـد أضحى مفهوم السـلف عند بعض حملة الأقلام: رمزا للتقهقـر إلى الوراء، ونقيضا لفكرة التقدم، فكأنما كان شـيوع مفهوم السلف عندهم حجـر عثرة في طريق ما يزعمونه تنويرًا، وما يظنونه تقدمًا، وكأن السـبق الزمني هو معيار التقـدم والتأخـر، جهلا أو تجاهلا بمـا كان عليه موقـف السـلف مـن حيويـة وفعالية فـي مقاومة انحراف المجتمعات، وطغيان الطغاة، واستبداد المستبدين، دون خنوع أو خضوع.

(٢) كمـا أضحـى مفهـوم السـلف لـدى السـلفية التـي تدعـي احتـكار وراثة السـلف: معادلًا موضوعيًا لحرفية الفهم، وإنكار التأويل، وإقصـاء لدور العقل، وتوسـيعًا لدائـرة البدعة، وحثـا علـى التمسـك بالأشـكال والمظاهـر، وإقحامـا للجماهير في مشـكلات نظرية عقدية لا قبـل لهـم بهـا، وكأن الأمة قد نفضـت يديها عـن مهمتها العظمـى في حمل مشـاعر الهداية والرشـاد إلى البشـرية الحائرة، ونشر الأمل في غد ينتشـر فيه عبق العدل، ونور الحق، وسكينة الإيمان.